Coptology

السياق التاريخي لمؤتمر العقيدة القبطية الأرثوذكسية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

السياق التاريخي لمؤتمر العقيدة القبطية الأرثوذكسية

ملاحظة أولية:

الاسم "مؤتمر العقيدة القبطية الأرثوذكسية"، اسمٌ يحمل طابع الانفصال عن التسليم الكنسي الذي تؤمن به وتقبله الكنائس الأرثوذكسية "الكائنة من أقاصي المسكونة إلى أقاصيها". ولذلك، وحسبما نُشر على مواقع التواصل الاجتماعي، لم يقدم هذا المؤتمر سوى الإسفاف والجهل التام بالتاريخ، حتى التاريخ القبطي نفسه.

إهمال التاريخ:

نلح في مساهماتنا الأخيرة على قضية دراسة التاريخ وعدم اختزاله في عصرٍ أو في شخص، ذلك أن شخصاً بذاته ليس معيار الحقيقة، سوى ربنا يسوع المسيح. وحقبةً بعينها ليست هي الزمن الجميل؛ لأن التجسد فتح الزمان والتاريخ والبشرية على الأبدية، فأصبح إهمال التاريخ ترفاً لا نقدر عليه.

ولذلك، إذا أردنا أن نفهم ما هي الأسباب التي يستند إليها هذا المؤتمر في انعقاده، أو إذا أردنا أن نحلل ما خلص إليه من نتائج، لا بُد لنا وأن نضعه في سياقه التاريخي، فهو في الحقيقة التطور الطبيعي لحقبةٍ امتدت أكثر من أربعين عاماً كان عنوانها الرئيس هو التجريف والإقصاء، ولذلك لم يكن يمكن للمتآمرين القائمين على هذا المؤتمر أن يختاروا عنواناً أكثر مصداقيةً من هذا العنوان، ولا يمكنهم أن يخرجوا بنتائج تخالف ما انتهوا إليه من سفهٍ وتناقضٍ كان محلاً للسخرية والنكات على صفحات شبكة المعلومات الدولية.

باختصار، هذا المؤتمر بمعدِّيه ونتائجه هو الخلاصة اللاهوتية لحالة التعليم في الكنيسة القبطية في الأربعين عاماً الماضية، لا عن العقيدة القبطية الأرثوذكسية، رغم اعتراضنا على العنوان.

الحقيقة السافرة:

والحقيقة الواضحة، أنه لا خلاف إيماني بين كل الفرقاء: الكل يؤمن بالثالوث – ألوهية الرب – ألوهية الروح القدس – السرائر السبعة – الحياة النسكية – الترتيب الطقسي، وغيرها من أمور خاصة بأُم الشهداء، لا خلاف عليها. إذن، ما هي أسباب هذه الحرب الخفية والمعلَنة في آن؟

١– العداء الشخصي للقمص متى المسكين، وهو عداءٌ تحول إلى عداء لكل من يحاول أن يقول كلمة حق، لا من أجل الدفاع عن رجلٍ أمين صادق وباحث قدَّم أفضل ما عاش وما اختبر، فكان الجزاء هو الشتائم في أعز ما يملك، وهو إيمانه بالرب.

ولو بحثنا عن الأسباب الإيمانية، لوجدنا أنها غير موجودة بالمرة، بل فقط العداء الشخصي الذي بدأ به الأنبا شنودة الثالث.

٢– ومع أنه يوجد إيمان واحد يجمع الأنبا شنودة الثالث والقمص متى المسكين، إلاَّ أن شرح هذا الإيمان وعلاقته بالحياة الشخصية، هو موضوع الخلاف الحقيقي. العقيدة واحدة، والشرح مختلف، وتقبع الأسباب خلف المناهل التي شرب منها كل منهما، والحياة الشخصية التي عاشها مَن يبحث عن زعامة سياسية للأقباط، ومَن يرى أن الاتحاد بالمسيح الرب هو جوهر وقلب الإنجيل.

٣– كشف القمص متى المسكين عن عوار العصر الوسيط، وهو تمكين الشريعة والقانون من الحياة المسيحية، فصارت الشريعة هي الوسيط بين المؤمن والمسيح الرب. هنا طبعاً، انتفض جيل حماة الشريعة لا حماة الإيمان، وعادوا إلى العهد القديم

بكل ما فيه من ظلال لكي يطبَّق على عروس المسيح الكنيسة، ولما جاءت الكتب والمقالات التي تحاول أن تعيد للقارئ مكانته في علاقته الشخصية بالمسيح وبالروح القدس، هنا أدرك عشاق السلطة –وهي نتاج التمسك بالشريعة– أن زمام القيادة السياسية سوف يفلت، وهنا أيضاً بدأت الحرب: الاتهامات الكاذبة التي شملت حتى الذين حاولوا التهدئة من أجل سلام الكنيسة، فصاروا هم من أتباع متى المسكين، وأسقطوا اللقب "القمص" عن عمد إمعاناً في عدم الاعتراف به، وإنكار دوره في النهضة القبطية المعاصرة.

٤– وتطبيقاً لما ذكرناه الآن، فالأنبا شنودة الثالث والقمص متى المسكين كلاهما يؤمن بالروح القدس. ولكن، لما كان لروح الآب ترتيب ليتورجي في كل الصلوات، لا يمكن إنكاره أو تجاوزه، فالخطة إذن هي: كيف يمكن فتح ثغرة في هذه الصخرة الإلهية وشقها إلى نصفين؟ هنا تفتق ذهنهم عن:

أولاً: إنكار حلول الروح القدس فينا. ولما جاء الرد بأن هذا ضد ما جاء في الأسفار، تحوَّل الهجوم إلى أن حلول الروح القدس هو حلول مواهب لا أقنوم، وبالتالي إنكار أن الروح القدس نفسه هو العطية.

ثانياً: عندما تحول الخلاف من إنكار الحلول بالأقنوم إلى الحلول بالمواهب فقط، كان صمت القمص متى المسكين هو صمتُ مَن أدرك أن جوهر الصراع هو السلطة، لا الروح القدس، والزعامة، لا التسليم الكنسي.

٥– ومن ثَمَّ فجَّر موضوع العلاقة الشخصية بالرب كل ما كان كامناً في الوثنية المصرية من أفكار قديمة لم تمت، فعاد إلى السطح الاعتقاد بخلود النفس الإنسانية خلوداً طبيعياً، وهنا دخل خلود النفس –حسب الفرعونية المصرية– كبديل للحياة الأبدية والخلود الذي وُهِبَ لنا بالتجسد والصلب والقيامة، والذي يعطى لنا في المعمودية والميرون والإفخارستيا. وتمحور الخلاف حول المعنى الصحيح لكلمة قديمة غابت في عصر التأليف بالعربية الذي بدأ بأسقف الأشمونين بن المقفع، وهي "التألُّه

بالشركة في حياة الله". ومع أن زكريا بن سباع الذي جاء بعده ليقول إننا ننال "أخلاق الله"، أو "أخلاق الأُلوهة"، إلاَّ أن أسلمة الثقافة المصرية أوجدت عند الذين عشقوا السلطة والزعامة، اتهاماً بأن "التألُّه" هو "جريمة الشرك" التي لا يقبلها اخوتنا من المسلمين، حسب تعبير الأنبا شنودة الثالث، فينتقل الخلاف عندئذٍ من دائرة الخلاف السياسي إلى دائرة الخلاف الدموي، وكأنه يومئ للإرهاب المسلح أن اقتلوا هؤلاء، فقد أعلنَّا أنهم مشركون. وإن كانت إيماءته قد بائت بالفشل لأن صراع الجماعات المسلحة بالدين مع الدولة ومع نظام الحكم، أهم بكثير من حفنة من رهبان دير الأنبا مقار، ومن كاتب هذه السطور.

أثر سيامة البابا تواضروس الثاني:

بعد رسامته نادى قداسة البابا ولا زال بنداء التجديد، وقد بدأ ذلك في مؤتمر أنافورا الذي دُعي إليه كل الأطراف، وهنا أدرك الوارثون للزعامة أن الزمام بدأ يفلت، وأن القيادة الجديدة لا يمكن أن تحتوى، وهكذا جاءت المعركة الثانية، وكانت وسائلهم:

أولاً: اعتبار أن كل ما نشره الأنبا شنودة الثالث هو المقياس الأول والأخير لتاريخ وحياة وإيمان وعقائد كنيسة عمرها لا يقل عن ٢٠٠٠ سنة. وأن مَن يخرج على هذا هو هرطوقي لا غش فيه!

وبكل يقين، لو كان الأنبا شنودة الثالث حيَّاً، لرفض هذا، ولكن الوارثين يدركون أن الاحتماء به هو طريق النجاح.

ثانياً: توجيه الاتهام بأن ما جاء في حراك العودة إلى الآباء، هو لاهوت الغرب، وهو اتهام سبق للأنبا شنودة الثالث أن روَّجه عن غير دراية. هكذا، بشكلٍ عام، تحولت كلمة "الغرب" الوافدة من الثقافة المصرية السائدة إلى فزاعة قبطية للشك في صحة وأصالة ما يُترجم ويُنشر. كل ذلك فيما كان هو غارقاً في عشقٍ خاص

للمؤلِّف المعمداني سبرجن، القائد الصارم للنهضة الإنجيلية في القرن الماضي. ومن سبرجن، دخلت عقيدة الفداء والكفارة في التعليم عن طريق محاضرات الأب أوجين دي بليسي التي نُشرت في مجلة الكرمة، ومن كتب سبرجن نفسه، لتجد في أهواء الزعامة المدد الذي يجعل كل من يعود إلى أثناسيوس الرسولي وكيرلس الكبير بروتستانتياً! وهنا العجب كل العجب، فالمدافع الأول عن تعليم البروتستانت، يتهم الأرثوذكسي بأنه بروتستانتي، وما ذلك إلا لأنه يجهل أثناسيوس. بل، وفي مرحلة لاحقة، تحول أثناسيوس إلى توأم لشخصٍ آخر غريب عنا، هو أنسلم رئيس أساقفة كانتربري، صاحب فكرة "ترضية العدل والكرامة الإلهية"، الذي حوَّل الفداء من فداء للإنسان إلى فداء كرامة وعزة وعدل الله. ووجد أنسلم مكانةً أثيرةً عند الأنبا موسى أسقف الشباب، فساند ما جادت به قريحة الأنبا شنودة عن: خطية غير محدودة – عقاب غير محدود – مخلص غير محدود. وهكذا صارت الخطية والعقاب مساويين لابن الله، إذ أضاف إليهما وصف "غير المحدود"، وهو من وجهة نظريهما صفةً إلهيةً.

وراثة ذنب وخطية آدم:

لم يسأل العقلاء عندنا كيف يمكن لَمن أذنب وأخطأ، أن يورِّث ذات الخطأ وذات الذنب لغيره؟ "خطية الطبيعة"، وهو تعبير نيافة مطران دمياط ورئيس قسم اللاهوت، هو تعبير منقول من هرطقة ماني ومدارس الغنوسية. فالطبيعة لا تخطئ إلاَّ إذا انطوت تحت إرادة حرة. فلا خطأ ولا خطية إلا بالإرادة الحرة. وفقدان الحرية يحدث لشخصٍ مستعبَد، وهي حالة سيادة الطبيعة على الشخص، وهو ما ورثناه من آدم، أي الموت.

فالأم التي تُصاب بفيروس فقدان المناعة HIV يرث الطفل المولود منها ذات الفيروس، ولكنه لا يرث زنى الأم أو زنى الأب. والأب السكير يورِّث الفقر، ولا يورِّث فعل شُرب الخمر. وكم مِن قاتلٍ وزانٍ أنجبوا أولاداً وبناتاً شرفاء عظماء.

ولكن ها هي حركة الإصلاح البروتستانتي تعيد إلينا منهجها بالعودة إلى نصوص الكتاب المقدس من خلال القراءة الشخصية، لا من خلال قراءة تاريخية صادقة أمينة. ولأن لوثر بالذات، كان مرجعه أوغسطينوس وحده، وكالفن بالذات كان مرجعه ذهبي الفم وحده، فقد ظهر أثر ذلك في أنه لم يكن لدى أيهما النظرة الشاملة لمجال التعليم الآبائي، فانحصر ذلك التعليم بالنسبة إليهما في انتقاء ما كان يحوز رضى كل منهما.

عيبٌ، بل عارٌ أن يقرأ كاهنٌ كلمات القديس أثناسيوس الخالدة: "كل ما هو شر فهو عدم، وكل ما هو خير فهو موجود" (تجسد الكلمة ٤: ٥ – والرسالة إلى الوثنيين ٦)، ثم يعود ليقول بعد ذلك إن الخطية صار لها كيان يُنقل بالزواج والتناسل. وعيبٌ، بل عارٌ أن يزوِّرَ مطرانٌ نص القديس أثناسيوس في الفصل ٢٠ من كتاب تجسد الكلمة، من الخطية الجدية، أو من المعصية الأولى، ليصبح "الخطية الأصلية".

وكأن لسان حالهم: ماذا نفعل؟ لابُد من إحداث ثغرات للبقاء في القيادة، ولو على حساب الإيمان والتسليم الكنسي!!

لو كانت الخطية تورَّث فعلاً، فقد صار لها وجودٌ، وبالتالي يصير للعدم وجودٌ، وبالتالي يصير الإنسانُ خالقاً من العدم. هل يدرون ماذا يقولون؟

أيُّ هراءٍ هذا، ومن أين جاء هذا الغضب العارم الذي يهدد سلام الكنيسة؟

إن تلك الحرب الدائرة لا تهدف إلا إلى جر قداسة البابا تواضروس الثاني إلى صف المقاتلين، خصوصاً بعد أن صدرت توصية بوضع معجم للكلمات اللاهوتية، لم يشترك في اللجنة المنوط بها إنجازه، قادة هذه الحرب المستعرة وجنرالاتها. إذن، فلنعد إلى المربع الأول، مربع الكراهية والحسد والنزاع على الزعامة، وليكن ما يكون. هذا لسان حالهم.

أيُّ ضمير هذا الذي يسوقهم؟ أي روح تلك التي تسيطر عليهم؟ ارحمنا يا رب.

إن الكبير حقاً هو من يؤمن بما أعطاه الله من عطايا ومواهب، لا من يقف عند أبواب الزعامة يشحذ ويستجدي القبول.

كان كيرلس كبيراً بما أُعطاه وسلَّمه. وكان مكاريوس كبيراً بما عاشه وسلَّمه. وكان أثناسيوس رسولياً بما شَهِد به وكلَّفه نفيه خمس مرات.

لم يكن لدى أيٍّ من هؤلاء ميكروفون، ولم يقف أحدهم يستجدي رضى الشعب، ولكن "الحرص -حقاً- أذل أعناق الرجال"، وجعل السيد يركع كعبدٍ عند عبدٍ مثله.

د. جورج حبيب بباوي